أساليب الخطاب السردي في أخبار العيدروس

دكتور

فاطمة بنت سليمان حامد المرواني

أستاذ الأدب والنقد المساعد بجامعة جدة

كلية اللغات والترجمة

أساليب الخطاب السردي في أخبار العيدروس

دكتور
فاطمة المروانيي
قسم الأدب والنقد، كلية اللغات والترجمة
بجامعة جدة، المملكة العربية السعودية
falmaruani@kau.edu.sa

الملخص:

يعالج هذا البحث موضوع أساليب الخطاب السَّرديّ في كتاب: (النور السافر في أخبار القرن العاشر) للعيدروس، وقد تناولت الدراسة أساليب الخطاب السَّرديّ داخل المدوَّنة، مستعينة بالمنهج الوصفي التحليلي القائم على تتبع الخطاب السردي؛ لتحقيق أهداف الدراسة التي تكمن في تحديد أساليب الخطاب عند العيدروس في كتابه (النور السافر في أخبار القرن العاشر)، الوقوف على أكثرها ورودا، ودراسة تقنيات الزمن ووظائفه داخل المدونة ووقع البحث في أربعة مباحث: أسلوب السَّرد أشكاله ومكوناته وأبرز وظائفه، الوصف وأنواعه، الحوار وطريقته، ثم اختتم بدراسة الزَّمن ووظائفه وأنواعه، وأخيرا خلص البحث إلى نتائج جيدة وتوصيات دونت في الخاتمة منها: نوّع العيدروس أساليب الخطاب في أخباره؛ حيث ضم كثيرًا من الأساليب الأدبيَّة أثناء عرضه لتاريخ القرن العاشر. يُعد أسلوب السَّرد من أكثر الأساليب التي استعان بها العيدروس؛ وقد شكَّل السَّرد المباشر الجانب الأكبر في المدوَّنة، مزاوجًا بين السَّرد المفصل والمجمل في سرد أخباره، إلاّ أنه كان للسرد المجمل أميل كثيرًا. يغلب على أسلوب العيدروس تنسيق المعلومات وتنظيمها، بالإضافة إلى الأخبار، والاستشهاد، والتعليق. اعتمد العيدروس على أسلوب الوصف والتَّصوير في ثنايا أخباره، منوعًا في الغرض. حوت أخبار العيدروس على نوعين من الزَّمن: الزَّمن الخاص، والزَّمن العامِّ، وعلى عدد من تقنيات الزَّمن منها: الاسترجاع والاستشراف

الكلمات المفتاحية: أساليب – الخطاب السردي – أخبار– العيدروس

Methods of narrative discourse in Aidarous News

Fatma Alma rawany
Department of Literature and Criticism, Faculty of Languages and Translation, University of Jeddah, Saudi Arabia.
E-Mail: falmaruani@kau.edu.sa

Abstract

This research deals with the methods of narrative discourse in the book: The Light Blatant in the 10th Century News (Al Noor Al Safer fi Akhbar Al Qarn Al Asher) for Aidarous, the study addressed the methods of narrative discourse within the blog، using the descriptive analytical method based on tracking narrative discourse. In his book (The Light Blatant in the Tenth Century News - Al Noor Al Safer fi Akhbar Al Qarn Al Asher), he examines the most rosy، and examines the techniques and functions of time within the blog. The research took place in four topics: narrative method in its forms and method of functions، description and types، dialogue and method، and then concluded by studying the time، functions and types، and finally Al-Aidarous diversified the discourse styles in his news; he included many literary styles during his presentation of the tenth century history The narrative technique is one of the most used by Al-Aidarous; the direct narrative was the biggest part of the blog, a combination of detailed narrative and the overall narrative, but the overall narrative was much more inclined.

Al-Aidarous style is predominantly coordinated and organized in addition to news, citation and comment. Aidarous adopted the method of description and photography in the folds of his news, a variety in purpose. The news of Aidarous has two types of time: private time and public time, and a number of time technologies, including retrieval and foresight.

Keywords: Methods- narrative discourse- News- Aidarous

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين؛ سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد

فإن الدِّراسات السَّرديَّة من الموضوعات المهمة التي لاقت رواجًا داخل الساحة الأدبيَّة في العصر الحالي، وهي معين لا ينضب للباحثين والدارسين، فلا زالت تلهمهم أدبا ونقدا شعرا ونثرا، كما أن دراسة الخطاب من الدِّراسات التي تحوي عمقًا في دراسة النص الأدبي والنقدي، وتؤدِّي عادة إلى نتائج مثمرة في الدِّراسات السَّرديَّة داخل المدوَّنات الأدبيَّة.

لذا حاولتُ البحث عن دراسة تدور حول الخطاب السَّرديّ وخصائصه؛ فوقع اختياري على أخبار العيدروس في مدونته: (النور السافر في أخبار القرن العاشر)؛ لتكون دراسة ممتدَّةً لبحثٍ سابقٍ يدور حول بنية الحكاية في المدوَّنة، وخرج البحث بنتائجَ جيِّدةٍ؛ مما جعلني أُقدم على إكمال الدِّراسة من زاويةٍ أخرى، وهي دراسة خصائص الخطاب السَّرديّ في المدوَّنة.

ولم يتطرق أحد إلى دراسة المدوَّنة أدبيا – حسب علمي– على الرغم من أهميَّتها التَّاريخيَّة، فهي مدوَّنة، تحمل في طيَّاتها أدبيا يجيد السَّرد، والقصَّ، ونقل الأحداث بطريقةٍ سيحاول البحث الكشف عنها، كما تحمل المدوَّنة مادَّةً أدبيَّةً شعريَّةً كثيفةً من نظم المؤلِّف، أو انتقائه، وهي مادَّةٌ خصبةٌ للبحث والدِّراسة.

ويكتسب الموضوع أهميته في كونه يبحث في موضوع لم يسبق دراسته، ومحاولة الدراسة الكشف عن دراسة حديثة تبحث في مدونة عريقة ظهرت فيها مقومات الخطاب وأساليبه المتنوعة، حيث برز السرد في أكمل صوره،

وظهر الوصف والتصوير في أبهى صورة، فقد تجلت فيه جميع أغراضه وأنواعه

كما أشرق الزمن بتقنياته التي استعان بها العيدروس في سرد أخباره وجمع ما تفرق من أحداث – عصره – القرن الذي يؤرخ له.

وتكمن أهمية البحث أيضا أنها اتجهت الدراسة لمدونة تاريخية؛ لنتحسس أبرز الأساليب المستخدمة عند المؤرخين من خلال أخبار العيدروس في كتابه النور السافر في أخبار القرن العاشر للوقوف على أبرز وظائف الرَّاوي والأشكال السَّرديَّة وأنواع الوصف والتصوير، وكيفية ظهور الحوار في تلك المدوَّنات وتقنيات الزَّمن المستخدمة في تلك الأخبار.

وتكمن مشكلة البحث في الإجابة عن الأسئلة الآتية:

ماهي الأساليب التي استعان بها العيدروس في سرد أخباره؟ وما هي أكثر تلك الأساليب ورودا في تلك الأخبار؟ وكيف وظف المؤلف الزمن في مروياته؟

لذا، فإن الدراسة تتطلع إلى تحقيق جملة من الأهداف، يمكن إجمالها فيما يلي:

١. تحديد أساليب الخطاب عند العيدروس في كتابه (النور السافر في أخبار القرن العاشر).

٢. الوقوف على أكثر أساليب الخطاب ورودا في أخباره.

٣. دراسة تقنيات الزمن وأنواعه ووظائفه في المدونة.

اتَّبع الباحث المنهج الوصفيَّ التَّحليليَّ القائم على تتبُّع مواطن الخطاب السَّرديّ، والوقوف عليها أدبيًّا.

وقد تكوَّن البحث من مقدَّمةٍ وتمهيدٍ وأربعة مباحث: السَّرد، الوصف، الحوار، الزَّمن، ثمَّ الخاتمة والتَّوصيات، واختتم بثبت المصادر والمراجع.

التمهيد

عُــرّف الخطاب بأنه: "دالٌّ كلاميٌّ منسَّق يتجاوز حدود الجملة الواحــدة، وفيه تتأدى مجموعة من المداليل: إما صفة القصصية أو السَّرديَّة"(١).

والخطاب السَّرديّ من أهم موضوعات الدِّراسات السَّرديَّة الحديثة، الــذي يتناول تحليل الأساليب المتبعة في المدوَّنات الأدبيَّة، وبالطريقة التي تقدَّم بهــا الحكاية، ويختلف الخطاب باختلاف الرَّاوي، أو القاصُّ، أو المؤرخ؛ فهو يعتمد اعتمادًا كليًا على الكاتب؛ فأحياناً تكون الأحداث التَّاريخيَّة واحدةً، ولكل مؤرِّخٍ طريقةٌ خاصَّةٌ في عرضها وتصويرها.

أساليب الخطاب السَّرديّ:

تنوعت أساليب الخطاب السَّرديّ في كتاب "النور السافر في أخبار القــرن العاشر"؛ حيث استخدم العيدروس أساليب متنوِّعةً أثناء عرضه لأخباره، ومــن أبرز تلك الأساليب ما يلي:

المبحث الأول: السَّرد

أسلوب السَّرد الحكائي، وهو من أشهر الأساليب المتَّبعــة فــي المؤلفــات القديمة؛ خاصَّة الأدبيَّة، والتَّاريخيَّة، والسِّير، والتراجم.

وإذا نظرنا إلى المدوَّنة التي بين يدينا، نجــد أنَّ السَّــرد المباشــر يمثِّــل الجانب الأكبر؛ فالكاتب يسرد أحداثًا حدثت في سنوات القرن العاشر، معتمــدًا على السَّرد والتَّدوين في نقل الأحداث، وهو في هــذا يــراوح بــين السَّــرد المفصَّل، والسرد المجمل وهو الغالب العام في المدوَّنة.

ومن أمثلة السَّرد المفصل، الذي ذكر المؤلف فيــه أغلــب التفصــيلات، والمعارف، والمعلومات: قوله في وصف إحدى الشَّخصــيَّات: " وجــد فــي الطِّبِّ، ودأب حتى برع في العلوم، وانتصب للتَّدريس والفتوى، وصــار مــن

أعلام الدين والتقوى، وكان إمامًا كبيرًا عالمًا عاملاً، محققًا ورعًا زاهدً، مجتهدًا عابدًا، مقبلاً على شأنه، تاركًا لما لا يعنيه، ذا مقاماتٍ وأحوالٍ وكراماتٍ، وكان حسن التعليم، ليِّن الجانب، متواضعًا، صبورًا مثابرًا على السُّنَّة، معظِّمًا لأهل العلم، وكان و وصاحبه العلامة عفيف الدين عبد الله بن أحمد بامخرمة عمدة الفتوى بعدن"[٢]

وممَّا سبق نجد أن العيدروس في مدوَّنته يفصِّل، ويسهب في القول، والوصف؛ ليجعل المتلقي على بصيرةٍ بكل ما ينقله، ويصوِّره؛ خاصة في الأوصاف، وسرد الألقاب للمكانة العلمية والأخلاقية.

وإذا نظرنا إلى السَّرد المجمل، الذي يوجز فيه الأحداث والأخبار والقصص، فإنه يوجِّه المؤلف فيه الاهتمام إلى الأحداث المهمَّة والأساس، مثل قوله:" وَأما كراماته فكثيرة كقطر السَّحَاب لَا تدْرك بعد ولَا حِسَاب، ولَكِن أذكر مِنْهَا على سَبِيل الْإِجْمَال دون التَّفْصِيل: ثَلَاث حكايات تكون كالعنوان على بَاقِيهَا بِالدّلَالَةِ والتمثيل"[٣].

ويعدُّ هذا النَّوع هو الغالب العامَّ لكتاب (النور السافر)؛ خاصَّة وهو يدوِّن ويؤرِّخ للقرن العاشر، معتمدًا على نظام السنوات، والاقتصار على أبرز الأحداث، مركِّزًا على أهمِّ الملامح الفلكيَّة، والوفيَات، والمواليد في كل سنة من سنوات القرن؛ فهو يطوي السَّنة ويجمل القول في عدَّة سطور لبعض الأحداث.

وبهذا يمكننا القول بأن العيدروس كان يراوح بين الإجمال والتفصيل في سرد الأحداث التَّاريخيَّة، فهناك سنوات يطيل القول فيها ويفصِّل مثلما ما ورد في أحداث سنة: (٩٠٣/ ٩١١/ ٩١٤/ ٩٣٠/ ٩٣٢/ ٩٤٥/ ٩٩٠/ ٩٩١).

وهناك سنوات يجمل أحداثها، ويوجز القول فيها مثل: سنة (٩٠٤)، وسنة (٩٠٩)؛ إذ اقتصر التَّأريخ على ذكر حدثين هما: وفاة الشيخ الصَّالح عفيف الدين عبد المجيد، وقصة الرجل الذي يتراءى للناس بين الحائط ومسجد الحما. وكذلك حين نقرأ أحداث سنة (٩١٢/٩٣٧/٩٣٩/٩٤٠/٩٨٧) نجد أن السَّرد فيها مقتضبٌ، لم يتجاوز ستة أسطر، وكذلك سنة (٩١٣/٩٢٤/٩٢٧)، وفي سنة (٩٩٥) اقتصر العيدروس في أخباره على ذكر حدثٍ واحدٍ فقط.

مكونات السَّرد

تتكون أخبار العيدروس في كتابه: (النور السافر) من: الرَّاوي وهو العيدروس، والمروي وهي أخبار القرن العاشر وأحداثه، والمتلقي.

أمَّا الرَّاوي:

فهو شخصيَّة واقعيَّة تولت التَّأريخ للحقبة التَّاريخيَّة، وذلك بعرض وفَيَات الأعلام، والعلماء، والخلفاء، والأدباء، والفقهاء. وقدَّم الرَّاوي عدَّة وظائف داخل المدوَّنة، أسهمت إسهامًا فاعلًا في تنظيم الخطاب السَّرديّ وفي طريقة عرضه للأحداث؛ فمن أبرز الوظائف التي قدَّمها الرَّاوي في المدوَّنة ما يلي:

أولاً: الوظيفة التَّنسيقيَّة:

استطاع العيدروس أن يخرج لنا المعلومات التَّاريخيَّة بأسلوبٍ منظَّمٍ؛ فقد اهتمَّ بالخطاب السَّرديّ؛ حيث قدَّمه بطريقةٍ منظَّمةٍ، استطاع من خلالها جمع شتات المعلومات المتفرِّقة، والمعارف المتنوِّعة؛ لذا اتَّخذ من نظام السَّنوات المتتابعة سُلَّمًا، عرض من خلاله أخبار الحقبة الزَّمانيَّة، وتفصيلاتها التي يؤرخ لها (القرن العاشر)؛ حيث ربط الأحداث والسَّنوات بعضها ببعض بطريقةٍ تنظيميَّةٍ، كما يظهر التَّنسيق أيضا من خلال توضيح منهجه، وطريقة

عرضه داخل المدوَّنة في مقدمة الكتاب؛ لتسير الأخبار، والأحداث وفق نظامٍ، ونَسَقٍ واضحٍ، وتسلسلٍ منطقيٍّ.

ثانيًا: الوظيفة الإخبارية:

تجلت الوظيفة الإخبارية في عنوان الكتاب وموضوعاته، وقد أعلن الكاتب عن هذه الوظيفة في فاتحة الكتاب؛ إذ يُعنى بالإخبار عن القرن العاشر؛ فهو يؤرِّخ لأبرز وَفَيَاته من علماء، وملوكٍ، وفقهاء في مشارق الأرض ومغاربها.

ثالثًا: الوظيفة الاستشهادية:

نلمح الوظيفة الاستشهادية في جوانب متفرِّقةٍ في الكتاب؛ فهو يستشهد ببعض النوادر، والحكايات، العجيبة، والكرامات لبعض الصَّالحين.

كما استشهد العيدروس في أخباره ببعض الشَّواهد الشِّعريَّة، سواء أكانت من نظمه أم من نظم والده، أم غيرهما، وغالبًا ما يوثِّق كلَّ استشهادٍ، وينسبه لقائله، ويوثِّق كلَّ حدثٍ باستشهادٍ يدعمه، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ في المدوَّنة.

كما أورد العيدروس في أخباره مصادره، التي استقى منها، سواء أكانت كتبًا عاد إليها، أم أقوالاً سمعها من أشخاصٍ ثقاتٍ، فبيّن أسماءهم عند النقل، والإخبار كلٍّ في موضعه.

رابعًا: الوظيفة التَّعليقيَّة:

كثيرًا ما يقف العيدروس أثناء نقله الأخبار؛ للتعليق فلم يكن العيدروس ساردًا للأحداث فقط، بل كان عالمًا بما يقوله، وينقله؛ لذا نجده يعلِّق على الأحداث بقوله: "فائدة"، سواء كان يشرح اللفظة مثلما جاء في ص:(٨٠)؛ حيث يدلل على كرامات الأولياء من المنقول والمعقول، ثم يفسِّر، ويشرح لفظَيْ(المنقول)، و(المعقول)، أم كان يذكر فائدةً لغويَّةً أو نحويَّةً، أم كان يستدلَّ بأقوال الرسول (ﷺ).

بل قد يكون تعليق العيدروس عبارة عن إظهار تحسُّره على فوات تواريخ بعض العلماء والوجهاء، ويذكر بعض الأسماء التي لم يتمكَّن من توثيقها، أو جمع معلومات عنها مثل قوله:" إن فِي قلبِي حسرةً عَظِيمَةً؛ إذ لم يَتَيَسَّر إِلَى الْوُقُوف على تواريخ جمَاعَة من الاعيان الْمَشْهُورين كطائفة من الْأَوْلِيَاء الْكِرَام وَجُمْلَة من الْعلمَاء الاعلام مثل الشَّيْخ الإِمَام والحبر الْهمام..."(٤).

وتأتي تعليقات العيدروس المتنوعة بعد قوله: (فائدة)؛ للدلالة على تنظيمه، ومحاولة التَّفريق بين غرضه الأساس، وهو التَّأريخ، وبين تثقيف المتلقي؛ كما أن فيه حرصًا على عدم تشتيت المتلقِّي بتلك الاستطرادات.

المروي:

يقصد بالمرويِّ هنا كتاب: (النور السافر في أخبار القرن العاشر) بكل ما ورد فيه من أحداثٍ، وأشخاصٍ، وزمانٍ، ومكانٍ، وهو كل ما يتعلّق بالقرن العاشر من تواريخ الوَفَيَات، والقصص، والحكايات المصاحبة لها.

وحين اطلعت على معظم كتب القدماء في التَّأريخ، وجدت أن من عادة كل مؤلف أن يذكر الهدف من التأليف، وغالبًا إما أن يكون لوالٍ، وإما لخليفةٍ، وإما لشخصيَّةٍ مهمَّة، لكن العيدروس في هذا الكتاب لم يؤلّفه لوالٍ، أو غيره، وإنّما أراد التَّأريخ والتوثيق من باب العلم، وتخليدًا لذكر العالم، وأخذ العظة والعبرة من سيرهم؛ لذلك بعد أن أنهى منهجه قال: "ولله در من قال:

إِذَا عَرَفَ الْإِنْسَانُ أَخْبَارَ مَنْ مَضَىْ تَخَيَّلْتَهُ قَدْ عَاشَ حِيْنًا مِنَ الدَّهْرِ
فَقَدْ عَاشَ كُلَّ الدَّهْرِ مَنْ كَانَ عَالِما كَرِيْمًا حَلِيْمًا فَاغْتَنِمْ أَطْوَلَ الْعُمْرِ"(٥) (الطويل)

أشكال السَّرد:

تنوَّعت أشكال السَّرد في كتاب: (النور السافر)؛ حيث جاء السَّرد في مدوَّنة العيدروس وأخباره سردًا متسلسلًا؛ فهو يسير على نظام السَّنوات بتسلسلٍ منطقيٍّ، يستخدم التَّرتيب المنظَّم، فتأتي الأخبار متسلسلةً سنةً تلو أخرى.

كما يظهر السَّرد التَّسلسليُّ في أخبار كلِّ سنةٍ على حِدَةٍ؛ فيقوم العيدروس بتقديم الأخبار والحكايات خبرًا تلو آخر، وحدثًا بعد حدثٍ، إلى أن تنتهي الأخبار الخاصَّة بالسَّنةِ المؤرَّخ لها.

ويتخلَّل تلك الأخبار والأحداث السَّرد المتقطِّع في أحايينَ كثيرةٍ، فيظهر الاسترجاع والوصف في أثناء سرد الأخبار والتَّأريخ للحقبة، وسيأتي ذكره بالتفصيل في مبحث الزَّمن.

المبحث الثَّاني
الوصف

يعدُّ الوصف أحد الأساليب الواردة في المدوَّنة، التي اعتمد عليها العيدروس في سرد الأحداث والقصص، والوصف هو: محاولة الرَّاوي نقل الحدث وتصويره بأدقِّ الألفاظ، وأكثرها تعبيرًا ودلالة على الموصوف، وإذا نظرنا إلى أخبار العيدروس وجدنا الوصف قد تنوَّع فيها ومن ذلك:

الوصف التَّعريفي/الإخباريّ:

الوصف الإخباريّ؛ هو ذلك الوصف، الذي يهدف الرَّاوي منه إلى التَّعريف والإخبار دون مبالغةٍ أو تجسيدٍ، استخدم العيدروس هذا النَّوع من الوصف عندما عرَّفنا بأسماء الشَّخصيَّات، والأعيان، وأنسابهم، ومعارفهم، وهذا في كلِّ ذكرٍ للأعلام، والشَّخصيَّات من فاتحة الكتاب إلى نهايته.

كما يظهر هذا النَّوع في وصف منزلة الأعلام العلميَّة، وهي تلك العبارات، والجمل التي تبيِّن مكانة العالم العلمية، ومن ذلك: ما ذكره العيدروس في سنة سبع قوله:" توفّي الْفَقِيه الْعَلامَة الصَّالح مُحَمَّد بن الْفَقِيه: عبد الله بن عبد الرَّحْمَن الْحَاج أَبَا فضل الْحَضْرَمِيّ بالشحر

نَشأ من صغره فِي الطَّاعَة وَالْعِبَادَة، وَظَهَرت عَلَيْهِ من حِينَئِذٍ لوائح السَّعَادَة، واشتغل بِالْعلمِ، فبرع وسلك طرق التَّدقيق، فلحق من قبله، وَفَاتَ من بعده، وتصدَّر فِي الشحر للْفَتْوَى والتَّدريس، وَتخرَّج بِهِ الطّلبَة وانتفعوا بِهِ كثيرا.."[٦]، والحقُّ يقال إن العيدروس بالغ في وصف علماء القرن، مادحًا، واصفًا كلَّ عالمٍ في مجاله، منصفًا لكلِّ من أرَّخ له.

كما يظهر الوصف الإخباريّ أيضًا عند ذكره لصفات الأعلام والتَّراجم الأخلاقيَّة: كالكرم، والسَّخاء، والزُّهد، والورع، والشَّجاعة، وغيرها، ومن

ذلك: ما ورد في أخبار سنة ٩٣٠هـ قوله: " كَانَ غايَة فِي الْكَرم، محسناً إِلَى الطّلبَة وَغَيرهم، كثير الإيثار، محبًّا لأهل الْخَيْر، متَّصفًا بالإنصاف، رجَّاعاً إِلَى الْحقِّ، مفضالاً، جواداً، سيداً، قويَّ النَّفس، مواظباً على أَفعَال الْخَيْر.."[٧]

كما يدخل ضمن الوصف الإخباريّ وصف المكان والزَّمان، ويتمثل في وصف مكان الدَّفن، والولادة، وزمانها، واليوم، والوقت، والسَّنة والشَّهر.

الوصف التَّوضيحيُّ (التَّفسيريُّ):

يقصد بالوصف التَّوضيحيِّ هو: ذلك الوصف، الذي يعتمد على التَّفسير، والتَّوضيح، ونقل الصُّورة، والحدث بدقَّةٍ للمتلقِّي، وكأنَّه مشاهدٌ له.

اعتمد العيدروس في كثير من أخباره على هذا النَّوع في التَّأريخ للحقبة، فجاء موضِّحا، مفسِّرا لكثيرٍ من الأحداث، ومفسِّرا لكلِّ مبهمٍ.

ومن ذلك على سبيل المثال: عندما وضَّح سبب تلقيب أَبي الْفضل جلال الدّين عبد الرَّحْمَن أبن كَمَال الدّين بابن الكتب؛ حيث ذكر قصة ولادته في سنة (٩١١ هـ)، وتدور أحداثها حول أن والده كان من العلماء، وطلب من والدته أن تأتيه بكتاب من كتبه، فذهبت وأثناء ذلك وضعته بين الكتب[٨]، فالوصف السَّابق وصفٌ تفسيريٌّ توضيحيٌّ فيه إطْلَاع للمتلقِّي، وزيادة ثقافته، ويعدُّ هذا الوصف نوعًا من التَّوثيق، وهو من أهم وظائف الوصف في المدوَّنة.

ومن ذلك أيضًا: وصفه للمدينة التي بناها شدَّاد بن عاد عندما سمع وصف الجنة، أراد تطبيقها على أرض الواقع، فحاول الواصف أن ينقل صورة المدينة، وطريقة بنائها، وأسباب نشأتها، وطريقة تصميمها وكيفية إعدادها.

كما أن المثال السَّابق يُظهر وظيفةً أخرى للوصف، وهي (الجمال والتَّزيين)، وذلك من خلال إظهار البراعة في التَّصميم والبناء، وكيف نقل

الذَّهب والفضَّة، وجمعهما من كلِّ مكان لتنفيذ البناء، وذكر أعداد الأشخاص، والأفراد الذين قاموا ببنائها، والوقوف على التنفيذ والإشراف عليه.

والأمثلة على مثل هذا النَّوع متوفِّرة في المدوَّنة، منها: وصفه لدخول كتاب فتح الباري في سنة ٩٠١هـ، وكذلك عندما ترجم لنفسه في سنة٩٨٧هـ وغيرها.

الوصف التَّأثيريّ:

وقد يُظْهِرُ الوصف بيان حالة الواصف، وتأثُّره عند تصويره للحدث، من خلال بعض العبارات، التي تدل على تضخيم الحدث، وبيان هوله، ومن ذلك ما جاء في سنة (٩١٠ هـ) قوله: "وفيهَا انقض كَوْكَب عَظِيم وَقت الْعشَاء، من الْيمن فِي الشَّام عرض مَدِينَة زبيد، وتشظى مِنْهُ شظايا عَظِيمَة ثمَّ حصلت بعده هزة عَظِيمَة وَلَا حول وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللَّه"(٩)

فوصف العيدروس للحدث بقوله: (لا حول ولا قوة إلا بالله) فيه استشعار لهول الهزَّة وعظمتها، والعيدروس عادةً يستخدم تلك العبارة أو يزيد قوله: (العظيم) في وصف كثيرٍ من الأخبار، وتصويرها مثل: ما جاء في أحداث سنة (٩٠١ هـ).

ويظهر أيضًا في وصفه لبعض الوقائع التَّصويريَّة والوصفيَّة، وعادةً ما تكون عبارات العيدروس دالَّةً على الحدث، ناقلةً للمتلقِّي الصورة الواقعيَّة، وهذا ما يحتاجه التَّوثيق التَّاريخيُّ؛ خاصةً أن العيدروس

يصف ما يقع أمامه، ويصور مشاهداته إلاّ ما ندر.

ويعتمد الوصف في أخبار العيدروس على الانتقاء والاختصار والإيجاز، وهو بذلك يبتعد عن ذكر التَّفصيلات والإطالة؛ إلاّ ما جاء في ترجمته في عام

(٩٧٨ هـ). وفيها بعض الأحداث التي أسهب وأطال فيها على غير العادة في كتابه.

وأحيانًا يصف الحجم والكمِّيَّة للتَّوضيح مثل قوله:" وترجمته فِي تَارِيخه ثَلَاثَة كراريس على الْقطع الْكَامِل"(١٠) فهو يصف حال الكراريس وحجمها.

والناظر إلى المدوَّنة يجد أن الأوصاف التي ظهرت في أخبار العيدروس أوصافٌ واقعيَّةٌ خاليةٌ من الخيالات؛ إلاّ ما ظهر في أحداث الكرامات، التي تطرّق العيدروس إلى الحديث عنها أحيانًا.

كما أن الوصف في الأخبار كان عبارةً عن نعوتٍ وأوصافٍ للشَّخصيَّات، مستخدمًا أدوات التفضيل في بيان مكانة الأعلام العلميَّة. كما نجد أن تقديمه للشَّخصيات والأعلام كان وصفًا تعريفيًّا بالاسم، والنّسب، والمكانة الاجتماعيَّة، والعلميَّة في الغالب العام، مبتعدًا كثيرًا عن وصف الصِّفات الجسديَّة إلاّ ما ندر.

أمّا وصف المكان في المدوَّنة فلا يتجاوز وصف مكان الدفن في الأغلب، ومن ذلك: ما ذكره في وفاة الفقيه العلامة كمال الدين المعروف بالمكشكش، عندما خرج من مدينة تعز مريضًا قال: "فرُدَّ إلى مدينة تعز، وغُسِّل، وكُفِّن، وصُلِّي عليه بها، ثم دُفِن بمقبرتها الأجيناد قريبًا من قبر الفقيه نفيس الدين سلمان..."(١١).

ويظهر الوصف التَّصويري الذي يعمد على التَّصوير والتشبيهات والاستعارات ومن ذلك قوله:

"وَكَانَ قد جمَّله الله تَعَالَى بعقلٍ كَامِلٍ، وزيَّنَة بِفضلٍ شَامِلٍ، لَهُ أَخْلَاق ألطف من نسيم السَّحَر، وأوصافٌ كالمسك إِذا فاح وانتشر، ذُو علم فائض زخَّار، وَفضلٍ يتدفَّق تدفق الْأَنْهَار، قد زاحم فِي الْفضل من تقدَّم، وارتقى فِيهِ إِلَى

الْمحل الأقوم، فصَارَ مِمَّن يشار إِلَيْهِ بالأصابع، وَمِمَّنْ يعوّل على رَأْيه فِي الْأَمر الشاسع..."(١٢)

وممَّا سبق نلحظ أن العيدروس يعتمد في الوصف على مشاهداته، ونظرته للأحداث، ونقله لها بالملاحظة الدقيقة، والمهارة في التعبير، والوصف، والقدرة على الربط بين الأهداف، بطريقةٍ منطقيَّةٍ، وأسلوبٍ واضحٍ، خالٍ من التَّعقيد.

المبحث الثَّالث

الحوار

يُعدُّ الحوار من الوسائل التي تسهم في دفع عجلة الأحداث، وتقديم الشَّخصيَّات في الخطاب السَّرديّ، كما يسهم في إحداث الحيويَّة والتجدد في الأخبار، وإبعاد الرَّتابة، والملل؛ فالحوار غالبًا ما يكون بين طرفين، أو أكثر. متحدِّثًا ومتلقِّيًا؛ ليقدم وظائف متنوِّعة في النَّصِّ السَّرديّ.

والمطالع كتب التَّأريخ يجد أنَّ الحوار يكاد ينحسر في القصص، والأحداث، وفي كنه الأخبار التَّاريخيَّة، فلا المؤرخ يخرج لنا حواراً – كما في الأجناس الأدبيَّة الأخرى– فما هو إلاّ ناقلٌ وساردٌ للأحداث، وما يتَّصل بها من شخصيَّات، والذي يمكن أن نخرج به هو: أن الرَّاوي (المؤرِّخ) قد يتولَّى سرد الأحداث، أو أن يترك لأحد الشَّخصيَّات السَّرد، والإخبار بالتَّناوب داخل المصنَّف.

والذي يظهر لديَّ أن العيدروس غالبًا ما يروي أخباره من مشاهداته زمن حدوثها حيث شاهدها وعاينها؛ فيصف كلَّ ما يقع أمامه، مثل: ارتفاع الأسعار، وهبوب الرياح والأعاصير، والحرائق، وغيرها.

وممَّا سبق أرى أن منهج العيدروس في كتابه واضح؛ حيث يبدأ في كل سنة بذكر الوَفَيَات من الأعلام المشهورين، موثقًا باليوم والشهر والوقت، ثم يضمِّن أخباره بعضًا ممَّا حصل في تلك السنة من أحداثٍ فلكيَّةٍ، أو اجتماعيَّةٍ، أو اقتصاديَّةٍ، ويبدو أن العيدروس أحيانًا كان يترك الأخبار والتَّوثيق للشَّخصيَّات نفسها، وكأنَّها استراحةٌ بسيطةٌ، ينتقل فيها السَّارد إلى متلقٍّ؛ لدفع السَّأم والملل، وكأنَّه حوارٌ داخل فضاء الخطاب، ساردًا تارة، ومستمعًا تارةً أخرى، ثم يعود إلى الخطاب مرة أخرى.

ومن ذلك على سبيل المثال: ما جاء في أخباره لسنة (٩١٧ هـ)، وهو كذلك في أخباره جميعها، وأحياناً ينتقل من السَّرد الشَّفويّ إلى السَّرد المنقول المكتوب، فيترك للشَّخصيَّة مسافةً، يُظهر فيها بعض كتاباته.

والعيدروس كعادته في المصنَّف ينوِّع بين التَّوثيق المنثور، والمنظوم؛ فالكِتَاب يغَصُّ بالتَّوثيقات

الشِّعريَّة للأحداث، والوَفَيَات، والأعمال الخبريَّة كبناء مسجد وغيره.

المبحث الرَّابع
الزَّمن

الزَّمن من أبرز العناصر التي تظهر في النص السَّرديّ؛ فهو المحور الذي يربط الأحداث بالشَّخصيَّات في المؤلَّفات التَّاريخيَّة، وهناك نوعان من الزَّمن في المدوَّنات التَّاريخيَّة:

- الزَّمن العام: وهو الذي يمثِّل في المدوَّنة القرن العاشر الهجري الذي يؤرخ له العيدروس.
- الزَّمن الخاصُّ: وهو الذي يهتمُّ بكلِّ حَدَثٍ وخَبَر داخل المدوَّنة.

وسأقف في دراسة الخطاب على نوعين من تقنيات الزَّمن: (الاسترجاع، والاستشراف).

الاسترجاع:

هو عمليَّة سرديَّة تقوم على استعادة أحداث قديمة في ذهن الرَّاوي، أو المؤرِّخ، ويسمَّى أيضًا بالسَّرد الاستذكاريِّ، "الذي يعني استعادة أحداث سابقة للحظة"(١٣).

وإذا أردنا أن نتلمَّس هذه التَّقنية في المدوَّنة، وطريقة العيدروس في استخدامها أثناء عرضه للأحداث، والأخبار نأخذ مثالًا قوله في أحداث سنة (٩٩٩ هـ): "ولنختم هذه الترجمة العظيمة بحكايةٍ غريبةٍ سمعتها من الثِّقات، وهي جديرة في هذا المحلِّ بالإثبات..."(١٤).

فقد جاء الاسترجاع هنا على لسان الرَّاوي المؤرِّخ بذكر حكايةٍ موثَّقةٍ سمعها، وجد مناسبةً لذكرها في هذا الموضع؛ ليستعيد حادثةً غريبةً سمعها، وأراد أن يذكرها هنا؛ لأنها المكان الأنسب من وجهة نظر الرَّاوي، ويكون الاسترجاع هنا استدلاليًّا.

وللاسترجاع عند العيدروس دلالات وألفاظ يستخدمها للاسترجاع منها: "وأخبرني بعض الثِّقات"[١٥]

"وحكى بعض الثقات"[١٦] للثِّقات أو للمجهول مثل قوله: " حكى رجل من أهل حضرموت "[١٧] أو ينسب الحكاية لشخصٍ معروفٍ.

فالعيدروس يوقف زمن الأحداث؛ ليستدلَّ بأقوال الثِّقات على صدق الخبر، أو كذبه؛ رغبة في التَّعليق على الأحداث، أو الاستدلال عليها؛ فيكون الاسترجاع للاستدلال أو التَّعليق.

وقد يكون الاسترجاع عند العيدروس؛ للاستشهاد بالأبيات الشِّعريَّة، سواء كان من نظمه، أم نظم المترجم له، أم غيره، ومنها قوله: "وعلى ذكر الشوي المذكور ذكرت بيتين فيه لصاحبنا الأديب جمال الدين:

إِنَّ الْهَبَارِيْشَ[١٨] لَهَا لَذَّةٌ تَفُوْقُ لَذَّاتِ الشَّوِيِّ وَالكَبَابْ "[١٩]

(بحر السريع)

ثم استطرد في وصف نوعٍ من الكلام "الهباريش" عند الحضارمة، وكلُّ ذلك أدّى إلى قطع زمن الحكاية في الخطاب بالاسترجاع، الذي وصفه العيدروس في دعم أحداثه، وإضافة الطرافة عليها، وإبراز ثقافته في كل مجال.

كما يجد القارئ للمدوَّنة هذا النَّوع من الاسترجاع طاغيًا على أسلوب العيدروس في كتابه، ولا غريب في ذلك؛ فالعيدروس يوثّق أحداثًا عاصرها، وعاينها، ووقف عليها.

وقد يكون الاسترجاع؛ لذكر كرامة الشّخصيَّة المترجم عنهـا، أو حكايـةٍ غريبةٍ عجيبةٍ؛ ليضفي على تراجمه نكهةً خاصَّةً، وزيادة توثيق، لذلك نجد في كتابه ما لا نجده عند غيره كما ذكر ذلك العلماء

خاصَّةً في التَّوثيق للقرن العاشر.

وقد يكون الاسترجاع للوصف والتَّصوير؛ لتوقيف المتلقِّي على كـلِّ مـا وقعت عليه عينه، كما مر بنا في الوصف سابقًا.

الاستباق:

من تقنيات الزَّمن الذي ظهرت في أخبار العيدروس (الاسـتباق) وهـو: القفز بالأحداث أو الإخبار الاستباقي للحدث قبل حدوثه وقبل وقته.

ويعمل الاستباق على تمهيد الأحداث، أو على توقُّع حدوثها، فيكون بمثابة التَّوطئة، والتَّقديم للأحداث، وظهر ذلك في مقدمة العيدروس؛ حيـث أعطـى المتلقِّي صورةً استباقيَّةً واضحةً لعمله، وكتابه؛ إذ أشار إلى أنه يريد أن يوثِّق، ويؤرِّخ للوَفَيَات من العلماء المشهورين، ويطعِّم ذلك ببعض الأحداث، والأخبار العجيبة والغريبة، وهذا يمثِّل توطئةً وتمهيدًا – لما سيأتي من أخبـار– وهـذا على عادة المؤلِّفين قديمًا وحديثًا.

ويظهر الاستباق أيضاً في ثنايا سرد الأخبار، ومن ذلك: حينما يُظْهِر اسم المترجم، أو ما يوحي بذكره يطمئن القاريء، ويعطيه إشـارةً اسـتباقيَّةً بأنـه سيتحدَّث عنه، ويؤرِّخ له، ومن ذلك: قوله في حديثه عن الفقيه عبـد الله أبـي محزمة الحميدي الشَّيبانيِّ، " فَلَمَّا رأى شَيْخه أَبُو شكيل مَا آل إِلَيْهِ أمره اغتـبط بِهِ وأحبه وخطبه لنكاح ابنته وزوّجه إياها، ورزق منها أولادًا فضلاء نجباء – سيأتي ذكر بعضهم–"(٢٠).

فقوله: "سيأتي ذكر بعضهم" إشارة تلمِّح للمتلقي بوجود ذكر لهم سيأتي ذكره لاحقًا، لكن دون تحديد ذلك الموضع، والسَّنة التي ترجم لهم فيها.

وكذلك ما ورد في أحداث سنة (٩٣٦ هـ) قوله: "وقد اشتهر كل من أولاده بمزيد العلم خلا عمر وسيأتي ذكر الثلاثة منهم عند ذكر السَّنة التي تُوُفُّوا فيها..." (٢١).

في الاستباق هنا حدَّد العيدروس للمتلقي الزَّمن الذي سيتم الحديث عن ترجمة الأولاد الثلاثة، وأنه سيكون في سنة وفاتهم؛ حتى يكون المتلقي متنبِّئًا بما سيذكر، ومتطلعًا لما سيأتي، ومتشوِّقًا له.

وقد يكون الاستباق مجالًا للدِّعاية والإعلان لشخصيَّةٍ من الشَّخصيَّات، ومن ذلك: ما جاء في سنة (٩٥٣ هـ) قوله: "وحيد عصره، وفريد دهره، شمس الشُّموس عمر بن عبد الله العيدروس، الآتي ذكر بعض محاسنه، وطرف من أوصافه الرضيَّة"(٢٢).

وإذا تأمَّلنا استباقات الزَّمن عند العيدروس في أخباره، وجدناها استباقاتٍ واقعيَّةً، أعلن عنها، ووفى بها، وليست مثل الاستباقات، التي يمكن أن تحدث، أو لا تحدث كما في الأعمال الأدبيَّة.

كما اعتمد العيدروس في أخباره على اختزال المدَّة والزَّمن، وهو ما يسمَّى بالمجمل، وهو أن يسرد المؤرِّخ، أو الرَّاوي "وقائع زمنيَّة من الحكاية تستغرق شهرًا في بضعة أسطرٍ، مثلما يمكنه إجمالها في بضع صفحاتٍ، وذلك وفقا لمتطلَّبات تنظيم الخطاب.."(٢٣)، وهذا حال المؤرِّخين عادةً في طيِّ الأحداث، واختصرها أثناء التَّوثيق؛ لذا اختصر العيدروس وفيات أبرز أحداث القرن العاشر بمجلَّدٍ واحدٍ في ٣٢٤ صفحةً؛ حيث طوى فيها أخبار مئة عامٍ،

وكذلك اختزل أيضًا الزَّمن في ترجمة العلمـــاء، وارتحـــالهم لطلـــب العلـــم، وعودتهم إلى بلده، وهذا واضح ظاهر في جُلِّ أخباره.

كما يظهر المجمل من خلال عنوان الكتاب وتقسيماته؛ فهو توثيق لقـــرنٍ كاملٍ من خلال تقسيمه لسنواتٍ، فيجمل الأحداث بقوله: سنة كذا، وهذا المجمل وظَّفه العيدروس؛ لتقديم الأحداث وتنظيمها.

الخاتمة

خلص البحث إلى مجموعةٍ من النتائج والتَّوصيات، ومن النَّتائج ما يأتي:

١-نوّع العيدروس أساليب الخطاب في أخباره؛ حيث ضم كثيرًا من الأساليب الأدبيَّة أثناء عرضه لتاريخ القرن العاشر.

٢-يُعد أسلوب السَّرد من أكثر الأساليب التي استعان بها العيدروس؛ وقد شكَّل السَّرد المباشر الجانب الأكبر في المدوَّنة، مزاوجًا بين السَّرد المفصل والمجمل في سرد أخباره، إلاّ أنه كان للسرد المجمل أميل كثيرًا.

٣-حوى كتاب النور السافر مكونات السَّرد من: راوٍ، ومرويٍّ، ومتلقٍّ.

٤-يغلب على أسلوب العيدروس تنسيق المعلومات وتنظيمها، بالإضافة إلى الأخبار، والاستشهاد، والتعليق.

٥-اعتمد العيدروس على أسلوب الوصف والتَّصوير في ثنايا أخباره، منوعًا في الغرض الوصفيِّ ووظيفته؛ كالوصف التَّعريفيِّ، والوصف التَّوضيحيِّ التَّفسيريِّ، والوصف التَّأثُّريِّ، والتَّصويريِّ، الذي يعتمد على التَّشبيهات، والأسلوب الأدبي الرَّصين.

٦-لم يظهر جليًا أسلوب الحوار في أخبار العيدروس كما هو الحال في الأجناس الأدبيَّة الأخرى، بل كان الحوار عبارةً عن التَّناوب بين المؤرِّخ وإحدى الشَّخصيَّات؛ إذ يترك لها سرد الأحداث والتَّوثيق، وكأنها استراحةٌ بسيطةٌ، ينتقل فيها العيدروس من ساردٍ إلى متلقٍ؛ لدفع الملل والسأم عن المتلقِّي.

٧-حوت أخبار العيدروس على نوعين من الزَّمن: الزَّمن الخاص، والزَّمن العامِّ، وعلى عدد من تقنيات الزَّمن منها: الاسترجاع والاستشراف.

٨-الاسترجاع عند العيدروس هو الجانب الطَّاغي على أخباره؛ لأنه يحمل وظائف متنوِّعة؛ فإمَّا أن يكون استدلاليًّا، استشهاديًّا، وإمَّا وصفيًّا تصويريًّا؛ بغية طرافة الخبر، أو إبراز ثقافة الرَّاوي.

٩-الاستباق من تقنيات الزَّمن التي ظهرت في أخبار العيدروس؛ وذلك إمّا للتمهيد والتوطئة؛ وإمَّا للدِّعاية والإعلان، وقد كانت الاستباقات واقعيَّة، أعلن عنها، ووفَّى بها معتمدًا على اختزال المدَّة والزَّمن(المجمل).

التوصيات:

- ما زالت الدراسات السردية منهجًا أدبيًّا ثرًّا يمكن تطبيقه في كثير من كتب التأريخ.
- يمكن دراسة كتاب النور السَّافر للعيدروس من وجهاتٍ مختلفةٍ، وهو كتاب جدير بالدراسة.
- المادة الشعرية في الكتاب ثرة ممكن أن تقام دراسة أدبية حولها.

الهوامش

١- محمد القاضي وآخرون، معجم السَّرديات، تونس: مكتبة الأدب المغربي؛ ٢٠١٠م، ص:١٨٤.

٢- الشيخ محيي الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العَيْدَرُوس (ت:١٠٣٨هـ)، النور السافر عن أخبار القرن العاشر، بيروت: دار الكتب العلمية؛ ١٤٠٥هـ، ص: ١٦.

٣- المصدر السَّابق، ص: ٧٩.

٤- العَيْدَرُوس، مصدر سابق، ص: ٢٣٤.

٥- المصدر السَّابق: المقدمة، ص: ٥.

٦- المصدر السَّابق، ص:٤٣

٧- المصدر السَّابق، ص: ١٣٦.

٨- انظر المصدر السَّابق، ص: ١/٥١.

٩- المصدر السَّابق، ص: ٥٠

١٠- المصدر السَّابق ص: ٢٢.

١١- المصدر السَّابق، ١/٣٩.

١٢- المصدر السَّابق، ص: ٤١١

١٣- نضال الصالح، النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، دمشق: اتحاد الكتاب العرب؛ ٢٠٠١م، ص١٩٦.

١٤- النور السافر، للعيدروس، ٤٢٦.

١٥- المصدر السَّابق، ٢٨٧، ٢٩١.

١٦- المصدر السَابق، ص: ٣٠١، ٣٠٦.

١٧- المصدر السَّابق، ص: ٦٢.

١٨- "والحضارم يسمون مَا يشوى من سَواد الْبَطن وَنَحْوه الهباريش بِالْهَاءِ وَالْبَاء الْمُوَحدَة وَبعدهَا ألف وَرَاء ثمَّ تحتيه وَآخره مُعْجمَة، وَمن عَادَتهم انهم إِذا جَلَسُوا على أَكلَة يشرع أحدهم فِي قطع اللَّحْم فيدور فِيهِ على الْجَمَاعَة فَيدْفَع إِلَى أحدهم ويصنع بِالْآخرِ مثل ذَلِك وَمثله بِالْآخرِ إِلَى أَن تعود نوبَة الأول فيعطيه وَيسْتَمر كَذَلِك إِلَى أخر أكلهم، ويسمون ذَلِك الْأكل على هَذِه الْكَيْفِيَّة الوقصة ويجدون لذَلِك لَذَّة عَظِيمَة لَا يعدلها لَذَّة أُخْرَى" النور السافر، العيدروس: ١٧٨.

١٩- المصدر السَّابق.

٢٠- المصدر السَّابق، ص:٣٠.

٢١- المصدر السَّابق، ١٨٢.

٢٢- المصدر السَّابق، ٢١٧.

٢٣- محمد القاضي وأخرون، معجم السَّرديات، ص: ٣٧٣.

ثبت المصادر والمراجع

أولا: المصادر:

١. العَيْدَرُوس، محي الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله (ت: ١٠٣٨هـ) (١٤٠٥ه)

النور السافر عن أخبار القرن العاشر. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ.

ثانيا: المراجع :

١. القاضي، محمَّد وآخرون (٢٠١٠م)

معجم السرديات. تونس: مكتبة الأدب المغربي.

٢. الصَّالح، نضال (٢٠٠١م)

النُّزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة. دمشق: اتحاد الكتَّاب العرب.